(١٠)
بين ياسين وبد ر

بعد بضع سنوات ..

قريبا مِن موقف الأتوبيسات بالعباسية مساء أحد الأيام في مطعم الشرقاوي ملك الكبدة الأصلي ، كانت المرأة التي كانت شقراء الشعر باسم الدكتورة جاسيكا تجلس في زاوية مِن المكان .. راحت تضع قطعة مِن شرائح الكبدة المقلية داخل قطعة خبز، ثم تغمس طرفها داخل الملح أو الطحينة أو سلطة الكبدة ، ثم تُلقيها في فمها في نهمٍ ولذة ، وتعود فتذهب يدها لكرة مخ مقلية بحجم بيضة اليمامة تقريبا ، وتفعل بها نفس الشيء ، وكانت ترفع إلى فمها خلف كل لقمتين أو ثلاث كوبا صغيرا مِن الإستانلس ، عندما بدأتْ الأكل وُضِع أمامها هذا الكوب ممتلئا عن آخره بماء السلطة الخضراء المشطشطة ، تشرب منه تِباعا ، وكلما فرغ أشارت للشاب العامل أنْ يملأه مِن جديد ، فيسارِع إليها بذلك طامعا في البقشيش حين دفع الحساب .

وكانت تلك المسماة بجاسيكا تجلس بغير ذلك السمت الأشقر ، فقد كان شعرها الأصفر مجرد باروكة ، فلما نزعتها عن رأسها عادت إلى أصلها ، عادت إلى الغجرية صباح ، الزوجة الثانية لسالم ، ولم تكن وحدها تأكل الكبدة والمخ وتشرب ماء السلطة المشطشطة ، فهناك في مواجتها امرأةٌ ليست أقل جوعا ونهما منها ، تضع على مقعدٍ بجانبها طفلة جميلة صفراء الشعر زرقاء العينين اسمها هايدي .. كانت تلك المرأة هي الشيطانة الغجرية وعد المحروس ، وكانت هايدي هي

طفلتها مِن تامر، وهي الخديعة الثانية التي صار يعيش معها زوجها سالم السعدي ، تماما كزهرة ابنة صباح مِن رجلٍ غيره .

وكان صوتُ قهقهاتِ الغجريتين وعد وصباح يملأ المطعم ويجذب أنظار المحيطين ، وكانت قد تركتْ صباح طفلتها زهرة ، وتركت وعد الطفل ياسين مع المتسولات بإشارة العمل أمام مطعم البرج ، ثم جاءتا مِن مدينة نصر إلى العباسية لتأكلا .. تذكرتْ صباح ما فعلتاه بتامر الغمراوي ، فقالت ضاحكة :

- أين أراضيكَ الآن يا تامر؟

وانخرطتْ وعد في ضحكٍ متواصل جعل الجميع يتركون أكلهم ويلتفتون إليهما فصاحت فيهم :

- لماذا تنظرون لنا؟ .. ألم تشاهدوا امرأتين مِن قبل تضحكان؟

لم يرد عليها أحد ، وأداروا عيونهم عنهما إلى طعامهم ، وعادت المرأتان إلى حالهما مِن الضحك والقهقهات حتى أنهيتا أكلهما وشربهما ، فقامتا واتجهتا ناحية سيارة مرسيدس عيون ، قادتها وعد حتى مدينة نصر ، وهناك توقفتْ قريبا مِن إشارة العمل حتى لا تُلْفِت انتباه أحد مِن زميلاتها أو الزبائن إلى سيارتها الفارهة ، ونزلتْ صباح لإحضار زهرة وياسين .

أخذتْ وعد ياسين مع هايدي وعادت بهما قاصدة سكنها بمنشية ناصر ، وبالطبع ركنتْ السيارة في جراج بجانب شارع الأوتوستراد الرئيسي ثم صعدتْ منه على قدميها طريقا مزدحما بالناس والباعة الذين سدوا الشارع سدا بما يبيعون على امتداده ، ثم خرجتْ مِن الشارع المزدحم وهي تعاني وتسبُّ جهرا وسرا كلَّ مَن حولها لتسلك تلك الشوارع الضيقة الفقيرة العشوائية حتى وصلتْ إلى زقاق أكثر فقرا وضيقا بشارع الرزاز ، فدخلتْ مِن مدخلٍ ضيقٍ لبيتٍ قديمٍ متهالكٍ تنبعث

منه رائحة صرف بغيضة تصدر مِن مواسير المجاري الصدئة المثقوبة ، هذا مع رائحة أخرى عَفِنة انبعثتْ مِن أكوام القمامة المبعثرة بمدخل البيت وأمام باب كل شقة تمرُّ عليها .

وصعدتْ وعد منذ دلفتْ مِن المدخل الضيق سلما مظلما ضيقا أيضا ، لا يتسع إلا لجسدٍ واحدٍ صعودا أو هبوطا ، وخلفها كان الطفلان ياسين وهايدي يحاولان اللحاق بها ، وكانت معظم درجات السلم قد تكسرتْ ، فصارت خطرا على كل مَن يصعد دون أنْ يحذر لمواقع قدميه ، ولذا فقد تعودتْ منذ حملتْ التليفون المحمول أنْ تنير شاشته لترى أمامها ، ثم غيَّرته بتليفون آخر له مصباحٌ لتبصر مِن خلاله حين صعود هذا السلم المظلم ليلا ونهارا ، وكانت قبل ذلك تتبع بعينيها النور المنبعث مِن أبواب الشقق المفتوحة ، فالناس في مثل هذه البيوت العشوائية الفقيرة لا تغلق أبواب شققها في الغالب ، تتركها مفتوحة إلى نصفها أو آخرها ليأتيهم منها أية نسمة هواء مِن أية فتحة عشوائية أو شعاع ضوء أو شمس يتسلل لأجسادهم مِن ثقبٍ عشوائي أيضا ، فالنوافذ بداخل كل شقة نادرة إن لم تنعدم في بعضها ، ولذلك فأمراض الجسد هناك كثيرة ، وأمراض النفوس أكثر ، وماذا ينتج عن العشوائية غير ذلك؟

وبداخل شقتها جلستْ وعد على كنبة بالصالة الضيقة ما إن دلفتْ مِن الباب ، وانسحب ياسين وهايدي داخلين إلى حجرتهما الصغيرة التي لا تحوي غير سرير واحد صغير لهما سويا ودولاب موازٍ له ، في حين راحت وعد تنظر إلى الصورة الوحيدة المعلقة على الحائط الملطَّخ بدهان الجير أمامها .

نظرتْ للصورة باشمئزاز واحتقار، ودائما لا تَلْقَى منها هذه الصورة كلما رأتها إلا تلك النظرات الساخرة مع هزات رأسها الهازئة .. كانت الصورة لزوجها سالم وحده جالسا على مقعد ، يضع قدما على قدم ، وخده على قبضة يده في تلك الحركة الشاردة الباهتة الممسوخة ، وعلى جانبيه زهرات الورد البلاستيك مع حمامتين صناعيتين يمينا ويسارا ، ومِن المؤكد أنه التقط هذه الصورة قبل الزواج ، والتقطها له مصورٌ هاوٍ في أستوديو رخيص .. ولعل سالم كان يظنُّ نفسه فارس أحلام الفتيات ، لكنه الآن لا يساوي شيئا عند حمامتين بشريتين خائنتين له في كل ليلة لا يبيت عندهما فيها ، هما زوجتان لا يريدان منه غير اسم يستندان إليه في سلوكهما الفاجر القذر.

ويا لحظه التَعِس ومصيره الغامض ! ، هذا لأنه قد صار فعلا أكبر عَقبة أمام وعد في حياتها الجديدة مع المرسيدس وشقة السادس والأموال الجارية في البنوك مِن غنيمة معتصم ثم تامر، إنها بسبب استمرار زواجها منه لا تستطيع أنْ تترك هذه الشقة وهذه المنطقة القذرة لتسكن في المكان الذي تهواه .

صارت وعد تشعر بنقمة كبرى على زوجها سالم كلما فكَّرتْ في أنه مَن صار السبب الوحيد لمعيشتها في هذه المنطقة العشوائية .. همَّتْ أكثر مِن مرة أنْ تطلب منه الطلاق بلا تراجع ، لكنها كانت تتراجع ، فليس هناك مِن سببٍ واضحٍ يجعلها تطلب ذلك ، وإنها ما زالت رغم نفسها الطموحة الشريرة ومكرها الشديد لا تريد أنْ تثير أحدا مِن أهله أو أهلها ضدها ، وليس لديها الوقت والبال لأنْ تنقل قدميها ما بين المحاكم والمحامين وعملها إنْ عاند معها سالم .

فماذا تفعل الغجرية وعد لتنتقل إلى شقة أخرى مناسبة لها بطريقة لا تُغْضِب سالم وفي نفس الوقت لا تنقله معها؟ .. إنها لم تخبره بأمر سيارتها المرسيدس أو حتى تخبر أحدا مِن أهلها غير أمها ، فهل تُقْدِم على ذلك وتتقبل فكرة أنْ تنقله معها إلى حياتها الجديدة التى تأخَّر انتقالها إليها ، أم تصبر حتى تجد حلا عاجلا أو آجلا لتسكبه سكبا نهائيا مِن حياتها للأبد دون إجراءات الخصام والصلح والطلاق؟

في النهاية قررتْ أنْ تُكْمِل سكنها لفترة في منشية ناصر مع سالم الذي يأتيها في يومين كريهين لها ، لكنها ألحقتْ ياسين بمدرسة لغات خارجها ، ربما تخطط لشيء ما ، لذلك أرادت أن تعلمه علم المدارس الغالية العالية ، والعجيب أنه صار يذهب لمدرسة اللغات صباحا ثم يصطحبها للعمل متسولا في المساء .

ومع الأيام صارت تسأم مِن الوقوف بنفسها في الإشارة لبيع المناديل والتسول كالمتسولات العاديات ، أو ربما قد صارت تستكثر على امرأةٍ في مثل ثرائها وجمالها وأنوثتها أنْ تقف هكذا كالأخريات ، فكانت تركن سيارتها المرسيدس بعيدا كالمعتاد ثم تذهب لتُشْرِف على العمل في الغالب ، وتُصْلِح أي شجار يقع بين المتسولات والمتسولين ، ثم تأخذ نصيبها تاركة الطفلين ياسين وهايدي يتسولان وحدهما أو بالتبعية لأية متسولة بالأجر ، وأحيانا كانت تشتاق للتسول فتعود إليه قليلا ثم تسأم منه سريعا .

لكن ما الذي يجعلها تُبْقِى جذورا لها في هذا العمل طالما قد صارت تسأم منه؟ .. ثم إنها تمتلك مالا كثيرا مِن خداعها للمهندس معتصم شرف الدين ، ثم مِن صفقة الاحتيال والنصب على المسكين تامر الغمراوي ، وفوائدُ أموالها كفيلةٌ لجعلها تعيش حياة ثرية بلا عمل ، فلماذا التسول تحت أي مسمى؟

الجواب يعود إلى طبيعة حياة الغجر، أم هل نسينا أنها غجرية الأصل؟ .. تلك ثقافتهم، العمل ثم العمل، خاصة للمرأة، ومهما اكتنزوا فلا يزال بالجيب متسعا للأكثر، ولأنهم يحترفون عمل التسول، فهم ينجحون فيه أكثر مِن غيره وأكثر مِن غيرهم، فلماذا يخاطرون بتركه وإنْ صاروا مِن الأثرياء؟ .. لماذا يتركون الساحة والميدان الذي يمتلكونه أينما حلُّوا للهواة الذين لا يعرفون كيف يُخْرِجون النقود مِن جيوب المارة لجيوبهم بكل رضا وهدوء.

وعلى أيه حالٍ كان لا بد للغجرية وعد مِن الترقي شيئا ما في عمل التسول، فتركتْ خلفها مَن يحمل العبء عنها فيه، فهذه نوال نائبةٌ عنها، وتلك ابنة خالتها نهاد قد عادت إلى التسول بعد أنْ أرجعت لها وعد العشرين ألفا التي سرقها منها تامر الغمراوي بالاحتيال، ثم لقد كبر الطفل ياسين المسكين الذي بدَّلته مع طفلها بدر ابن بطنها حتى صار بإمكانه أنْ يرث عنها العمل الذي سئمتْ منه.

وها هو ياسين يتنقَّل بين السيارات المتوقفة في الإشارة يحمل علبا صغيرة مِن المناديل وهو يمدُّ يده عبر نوافذها لأصحابها في إلحاحٍ بغيضٍ إنْ كانت مفتوحة، ويطرقها إنْ كانت مغلقة، وها هو يردد:

(ساعدني يا بيه .. ساعديني يا هانم .. أنا طفل يتيم يا أبلة .. ساعديني يا مدام .. أنا يتيم وأمى مريضة .. نصف جنيه يا بيه)

وكان أصحاب السيارات بالطبع يرمقونه بنظراتٍ مِن الشفقة والعطف لأنه طفلٌ صغير مع نظراتٍ مِن السُّخْط على كبار المتسولين حوله، لكن منذ متى كان المتسولون كبارا أو صغارا يبالون بشيء مِن هذه النظرات إنْ لم يصاحبها مدُّ الأيدى بالمال لهم؟ .. إنهم لم يستحوا مِن الله عندما احترفوا سؤال الناس، فهل يستحون مِن بشر أو يبالون بنظرة لوم أو استهجان؟ .. لا أظن أنَّ هناك متسولين

يشعرون بالخجل مِن الناس؟ .. وإنه لمن الغريب أنَّ كثيرا منهم في قرارة ذاتهم قانعون ومقتنعون أنهم يمارسون مهنة شريفة وأنهم يستردون حقا لهم مِن أيادي المجتمع الظالمة ، لهم أن ينالوه بالحسنى فيرضوا ، وإلا فالسرقة والنهب مشروعان حينذاك دون لوم وذنب .

في كل الأديان السماوية يوجد حثٌّ للناس على الصدقات ومساعدة المحتاج ، لكن لأنَّ العقل البشري بطبعه فطنٌ ماكرٌ، فقد اتخذتْ تلك الحفنة الكسولة مِن البشر مواعظ الحث على الخير دافعا للخروج ومدّ اليد طلبا للمساعدة مِن الناس .. يعرف هؤلاء الكسالى الأذكياء أنَّ الناس تحبُّ تقديم الخير ، فخرجوا وملأوا الشوارع لأخذ هذا الخير بالحيلة ، وجهلوا أنَّ هناك بجانب الحثِّ على الصدقة خُلقا جميلا هو التعفف .. وبالطبع فإنَّ لكل إنسان الحق والحرية في أنْ يُعْطِي المتسول أو يمنعه .. إنْ أعطيتَ محتاجا منهم أخذتَ ثوابا ، وإنْ أعطيتَ غير محتاج أخذتَ ثوابا أيضا ، ويبقى أن يحمل مَن يتظاهر بالحاجة منهم وزر الكذب والخداع .

ومِن المثير للدهشة والألم والضحك معا أن يمرَّ الشخصُ بمتسولٍ فيسمع منه أجمل كلمات الأدعية له بأنْ يحفظه الله ويحفظ الأولاد والزوجة ، وأنْ يوسع مِن رزقه ويمد كثيرا في عمره ، ويصاحبُ ذلك مدُّ اليد وطلب المال فإنْ أعطاه الشخص تركه لغيره ، وإنْ تجاهله ولم يُعْطِه تنقلب الأدعية التي كانت له أدعيةً أخرى عليه ، يحدث هذا في السر أو العلن بصوتٍ منخفضٍ ، والأكثر ألما أنه يحدث أيضا مِن أطفال وصبية .

ولذلك فقد كان كل ما يتعلمه الطفل ياسين في المدرسة صباحا على أيدي المعلمين يهدمه في المساء الطفل ياسين المتسول على أيدي الشارع ، ذاك المعلم الأكبر الذي صبغه بكل ما هو شر ومكر ، فصار غرسا سيئا ، ولم لا؟ .. فقد شرب حتى آخره مِن بئر مربيته الغجرية وعد ، وطعم مع طعامها الحرام كل مكرها وغدرها ، وارتوى نبته اليافع مِن كل خصالها؟ .. لقد صار نسخة كربونية منها ، لا يميزهما عن بعضهما غير أنها الشيطانة الكبيرة ، وهو تلميذها الشيطان الصغير.

دخل عليها ذات يوم عائدا مِن المدرسة بحذاءٍ غير حذائه فقالت له :

- هذا الحذاء ليس حذاءك .. مِن أين أتيتَ به؟

قال لها وهو يبتسم :

- أعجبني فخلعتُ حذائي وبدلته مع صاحبه
- وهل رضي صاحبه؟
- طبعا لم يرضَ في البداية فأقنعته وبدلته .. ثم أراد أن يسترد حذاءه فضربته ولم أوافق
- لكن حذاءك أفضل يا ياسين .. أعدْ له حذاءه غدا واسترد حذاءك
- سيظن أني خفتُ منه
- قل له إن ياسين لا يخاف مِن أحد
- طبعا أنا لا أخاف مِن أحد

وفي يومٍ آخر ما أن عاد لها حتى أخرج مِن حقيبته مِقلمة ليست له .. رأتها فسألته :

- مِن أين أتيتَ بها؟

فقال في زهو:

- سرقتها

فضحكتْ قائلة :

- أيها اللص الصغير ستنفعني كثيرا عندما تكبر

- هل تُعجبك المقلمة يا ماما؟

- نعم .. لكن أعدها لصاحبها غدا ولا تسرق بعد ذلك شيئا بلا قيمة .. إنْ سرقت اسرق جمل

فعاد لها في اليوم التالي وبيده فردة حلق ذهب ، فتناولته منه وعرفتْ أنه ذهب فقالت له بفخر:

- ياسين يا حبيبي بمثل هذا آتني دائما .. وهكذا أحبك أكثر

- إذن كل يوم سآتيك بذهب

قالت له برفقٍ مصطنعٍ :

- أخبرني كيف أتيتَ بهذا الحلق الذهب؟

فابتسم الولد وراح يأكل كعكة محشوة بالعجوة ويقول :

- رأيته أسفل مقعد البنات .. فأخذته بكل سهولة دون أنْ أخبر أحدا

فضحكتْ وعد قائلة :

- وأنا مَن ظننتُ أنكَ قد صرتَ لصا كبيرا

فقال لها ياسين :

- هل هذا الحلق يساوي ثمن دراجة؟

- هل تريد دراجة؟

- نعم يا ماما أرجوكِ

- حسنا حسنا .. سأشتري لكَ دراجة طالما قد صرتَ تكسب المال الكثير

وأقبل الولد عليها يقبلها ففتحتْ ذراعيها له وقبلته ، وكانت المرة الأولى التي يحدث بينهما ذلك حتى أنها استغربتْ هذا منه ومِن نفسها وقالت :

- يبدو أنني سأحبك يا ياسين

فأسرع لها الطفل يقول مستغربا :

- ألم تكوني تحبينني يا ماما؟!

فابتسمتْ وقالت :

- أقصد أنني سأحبك أكثر

وبالطبع فهي لم تنسَ يوما أنه ليس ابنها ، إنه ابن مهندسة الديكور الثرية أحلام المصري ، أما ابنها فهو هناك في أفخمِ قصرٍ بالزمالك ، تربيه لها بنت الذوات تربية أولاد الذوات ، لكن عِشرة الأيام والسنين قد تجلب الحبَّ حتى بين الشياطين.

وإنَّ الرجل والمرأة قد يتزوجان زواج الصالونات ، ثم تطول بينهما السنوات التي تلد الحب لهما كأنه جنينٌ نقي ، إنْ نما بين يديْن حانيتيْن شبَّ أفضل بكثير مِن قصص الحب التي تذبل بعد الزواج ، ووعد وإنْ كانت بقلبٍ ميتٍ في الغالب فإنه في النهاية موجود ، حيث لا إنسان بلا قلب ، لذلك فمن الوارد أنْ تحب ياسين بسبب طول العِشرة بينهما وإنْ كان حبا منقوصا ، أما ياسين فهو طفلٌ صغير ، ووعد له هي الأم التي أنجبته .. لم يشك في ذلك يوما ، ومِن الطبيعى أنْ يحب الطفل أمه حتى ولو كانت قاسية .

لكن ما قد جعل القلب ينزف حزنا يوم أنْ وقف الطفل ياسين وسط الشارع يواصل عمل التسول في ساعة ممطرة ، وكانت مَسَّاحات السيارات تتسارع وهي تنفض الماء عن الزجاج ليبدو لراكبيها المختبئين مِن المطر طفلٌ صغير يُمْسِك بعلبة

منديل مبتلة تمتد بها يده ناحية النوافذ المغلقة ، في الوقت الذي راح فيه بعض الأطفال يطلبون مِن ذويهم فتح النوافذ لتمتد أيديهم منها عبثا ومرحا ليجمعوا قطرات المطر فوق أكفهم في سعادة طفولية تُبهجهم وتُبهِج قلوب الأهل .

ليس هذا فقط ، بل كان المنظر الذي يجعل حتى أشد النفوس قسوة تبكي ، هو أن مِن بين هؤلاء الأطفال العابثين مرحا بالمطر كان الطفل بدر معتصم شرف الدين .. كان يركب في المقعد الخلفي خلف أبيه المهندس معتصم والمرأة الطيبة الحانية أحلام التي يظنها أمه وتظنه ابنها .. نقل بدر نظراته مِن المطر إلى الطفل المتسول ياسين صائحا :

- بابي .. مامي .. انظرا إلى هذا الولد هناك .. كيف يقف تحت المطر هكذا؟

انتبه الأب أولا ، فنظر إلى ياسين وابتسم ثم قال لبدر:

- قلْ الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا

فراح بدر يردد خلف والده ، بينما كانت الأم منشغلة بالتحدث في تليفونها المحمول ، فلما انتبهتْ لبدر وهو يشير تجاه الطفل المتسول ياسين التفتتْ إليه ، فإذا بها بطريقة لا إرادية تُلْقِى الهاتف مِن يدها ولما تنتهِ مكالمتها ، وقد ظلت بعدها لسنواتٍ لا تنسى هذا الموقف ، وتبحث عن تفسيرٍ لما فعلته .

ألقتْ هاتفها ، بل صرختْ في زوجها معتصم أنْ يقف جانبا ، ونزلتْ مِن السيارة مسرعة إلى الطفل ياسين .. أخذتْ بيده بكل رفقٍ وحنان ، واتجهتْ به تحت سقف كابينة مرور ، وظلتْ تمسح بيديها ماء المطر عن شعره ووجهه ، وسألته:

- ما اسمك؟

أجابها مبتسما بصوتٍ رقيق :

- ياسين

فقالت بكل حنان وهي تنظر إلى وجهه وتبتسم :

- لا تقف تحت المطر يا حبيبي

فنظر لها الطفل ياسين نظرة ارتياح ، وظلَّ لفترة لا يتكلم ثم قال بصوتٍ يرتجف :

- أنا أحب الوقوف تحت المطر

فقالت له وهي تبتسم :

- حبيبي هل تريد أنْ تمرض؟

- لا

- إذن اسمع كلامي .. أنا خائفةٌ عليك

- لكن يجب أن أجمع مالا كثيرا

- سأعطيك مالا كثيرا

وظلَّ ياسين ينظر لها منتظرا أنْ تُعطيه مالا ، وظلَّتْ تنظر له دون كلام ثم قالت :

- انتظرني يا حبيبي سأعود حالا

وعادت مسرعة إلى السيارة ، وتناولتْ نقودا كثيرة مِن حقيبتها ، ثم مدَّت يدها لجاكت بدر في المقعد الخلفي .. أخذته على يدها .. عادتْ إلى ياسين الذي ظلَّ يتابع كل خطواتها بشعورٍ غريبٍ .. ألبسته الجاكت بيدها ووضعتْ داخله النقود قائلة :

- الجاكت والنقود لكَ .. وهيا عُد لبيتك الآن

- شكرا يا هانم

- لا تعمل تحت المطر مرة ثانية

- حاضر

وتركته خلفها في حين ظلتْ عيناه متعلقة بها حتى ركبتْ سيارتها ، فرفعتْ يدها تلوح له ، ورفع يده يلوح لها ، ثم التفت المهندس معتصم إلى ابنه بدروقال له :

- هذا الولد يشبهك كثيرا يا بدر

وعقبتْ المهندسة أحلام قائلة :

- فعلا والله

فأسرع بدرغاضبا يقول :

- كيف تقولان ذلك؟ .. إنه متسول

قالت الأم بلهجة غاضبة :

- إنه فقيريا بدر.. ويجب أنْ نساعد الفقراء .. اشكرالله أنْ جعلك غنيا

قال بدربنفس الغضب :

- لكن الجاكت يا مامي ....

- سأشتري لكَ غيره يا بدر

ودخل ياسين على وعد مرتديا جاكت بدر ، ولم يكن يحكي لها قبل ذلك عما يحدث له أثناء عمله في التسول مِن مواقف وأحداث على كثرتها كل يوم ، لكنها ما إن رأته حتى سارعت تسأله :

- مِن أين هذا الجاكت الجميل؟ .. ولماذا عُدتَ مبكرا؟

فقال لها مسرورا :

- أعطته لي امرأة طيبة جدا .. وأعطتني معه خمسمائة جنيه

فسارعتْ تسأله بلهفةٍ :

- أين هي؟

فأخرج مِن جيبه كل ما فيه .. تناولتْ وعد النقود بفرحٍ ثم سألته سؤال كل يوم :

- هل نسيتَ نقودا أخرى معك؟
- لا يا ماما
- ماذا ركبتَ مِن مدينة نصر إلى المنشية؟
- ركبتُ الأتوبيس ككل يوم
- أريدك أنْ تعتمد على نفسك .. أنتَ لست صغيرا
- طبعا يا ماما
- هيا ادخل وغير ملابسك المبتلة .. وأكلك هناك في المطبخ
- حاضر يا ماما

أما عن الطفل بدر، فلم ينقطع طوال الطريق إلى فيلتهم في الزمالك عن السؤال عن الأطفال المتسولين والفقراء وعن آبائهم وأمهاتهم وإخوتهم ومنازلهم ، وعن سبب التسول والفقر، وكيف يترك الأهل أولادهم هكذا في الشوارع ، وكان أبوه المهندس معتصم شرف الدين دائما بعد كل إجابة يطلب منه أنْ يشكر الله .

وكانت المهندسة أحلام خلال ذلك شاردة القلب والعقل مع ياسين المتسول ، وكانت دموعها تسيل مِن خديها فتواريها كلما طافت بذهنها معه تتذكر حالتها عندما رأته ، وقد ظلَّتْ تُقسِم لزوجها معتصم بقية الطريق أنها لم تشعر بنفسها أبدا وهي تُلقي الهاتف مِن يدها ، حتى إنها لم تتذكر أنها صرختْ في وجهه أن يقف بالسيارة جانبا ، وشرع الزوجان يفكران في سبب هذا الشعور الخفي الغريب تجاه الطفل ياسين ، والذي سيطر على أحلام وأخذ منه معتصم نصيبا ، لكن بالنهاية اقتنع الاثنان أنَّ ذلك قد حدث بسبب الشبه الكبير بين ابنهما بدر والطفل المتسول في الشكل والعمر.

وفي فيلا الزمالك أسرعتْ مربية بدر تحمله مِن أسفل سلم الفيلا إلى الداخل بالأعلى ، فأدخلته إلى الحمام ، وظلَّتْ قريبا منه حتى اغتسل ، فناولته منشفته وملابسه الداخلية ثم ألبسته البقية .

وكانت خادمة الأسرة الجديدة امرأة كبيرة السن بقلبٍ حنون ، قد وضعتْ ما لذَّ وطاب مِن الطعام على السفرة المذهبة جوانبها حيث جلس بدر بين الزوجين الهانئيْن يأكل طعامه اللذيذ ، وحيث يتسابق الاثنان في حثِّه على أنْ يأكل أكثر ، فإنْ لم يستجب لهما وعداه بهدية جميلة في الغد إنْ استجاب وأكل ، وما أكثر الهدايا له في كل يوم ! ، وما أكثر ألعابه غالية الثمن التي تملأ كل أركان حجرته الواسعة المزينة بأروع الأثاث ، والمكسوة جدرانها بأحدث أنواع ورق الحائط ذي الألوان والرسومات الطفولية المبهجة!

وأما والده المهندس معتصم شرف الدين فقد تاب إلى ربه وحجَّ البيت الحرام ، فهو بالطبع لم ينسَ تلك الشهور التي عاشتها معهما الخادمة وعد في الفيلا ، ولم ينسَ لحظات الحرام معها التي أنجبتْ منها الطفل الحرام ، وقد فكَّر كثيرا في لحظاتِ الورع ونوبات الخشوع أنْ يبحث عن هذا الطفل ليحميه بأية طريقة مِن بين براثن أمه الشيطانة ، ثم كان يتراجع سريعا خوفا مِن أنْ يجلب القلق إلى بيته المستقر ، واعتمادا على أنه قد أمَّن مستقبله تأمينا يُريح الضمير ، والأب المسكين لا يعلمُ أنَّ الطفل الحرام هو بدر الذي يحيا منعما بين يديه وأمام عينيه ليل نهار ، وطفله الحلال هو ياسين المتسول تحت المطر والشمس وقهر الأيام.

وعلى أية حال فإنَّ مأساة معتصم رغم هولها لا تُقاس بمأساة زوجته المسكينة أحلام المصري التي كتب عليها القدر أنْ تربي فى حضنها طفلا حراما هو بدر ابن الخادمة الغجرية في الحقيقة ، وضع زوجها الحبيب غرسه بالخيانة لها في

الخادمة ، وعلى ابنة الأصول أنْ تتعهد هذا الغرس الحرام فوق كفيها يوما بيوم دون أن تدري ، تَسقيه مِن دموعها وخوفها عليه ليشبَّ رجلا سويا ، في حين أنْ ابن بطنها الحلال هو ياسين الذي بدلته الشيطانة الغجرية ببدر ليحيا المسكين ياسين هناك بين يدي الشيطانة حياة الأشقياء متسولا تحت المطر والشمس وقهر الأيام .

في المساء دخل الطفل بدر حجرته مع المربية ، فجلستْ بجانبه على السرير تحثه على أنْ يُنهي كوب اللبن الشهي اللذيذ ، وما إنْ شرعتْ تحكي له حكاية جديدة حتى أخبرها أنه يريد أنْ يسمع حكاية الليلة مِن أمه أحلام .. هكذا يظن أنها أمه .

وخرجتْ المربية وعادت بمدام أحلام .. لم تشأ أبدا أنْ ترفض له طلبا ، ورغم أنها في منتصف حملها ببنت كما أخبرها الطبيب إلا أنها استلقتْ بكل حبّ بجانب ابنها ، هكذا تظنُّ أنه ابنها .. حكتْ له أكثر مِن حكاية حتى نام فنامت بجانبه .

وفي الصباح تناول السائق مسعود حقيبة الأمير المدلل بدر مِن المربية على سلم الفيلا ، ثم سار بجانبه حتى السيارة .. فتح له الباب بكل رفقٍ وحرصٍ عليه .. قاد السيارة حتى مدرسته الأجنبية الخاصة بالتجمع الخامس ليقضي يوما دراسيا رائعا بين أطفال في مثل ثرائه ورقيه ومستواه الاجتماعي ، وعاد بعد يومه الدراسي ليرتمي بين أحضان النعيم .